من أخبار المسافرين (٣٦)

مسافرون أيقنوا بالهلاك

إليك، أخي المسافر، هذه القصة لثلاثة نفر من المسافرين القدماء ولكن يا ترى ما مدى صحة هذه القصة، من أخبرنا بها، من نقلها إلينا؟ هل هي من نسج الخيال ومن حكايات القصّاص؟ لا والله إنها قصة حقيقية صادقة صِدْق الرسالة المحمدية، ناصعة نصاعة الشمس البهية، تتجلّى فيها الرحمة الربانية، والعبرة الإيمانية، أما من رواها فهو أصدق إنسان عرفته الدنيا، إنه الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحىٰ، يرويها عظيم العظماء وسيد البلغاء، والفصحاء، وخاتم المرسلين والأنبياء، أفضل إنسان نطق، وأعظم مُحدِّث صدق، فأرْخ سمعك، وافتح قلبك، وأعْمِل عقلك:

«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي، وفي رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها

عشرين ومائتي دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلاَّ بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبدالله، أدّ إليَّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»

[متفق عليه]

معنى: لا أغبق: لا أقدم في الشرب قبلهما أهلاً ولا مالاً. والغبوق الشرب في العشي. معنى ألمت بها سنة: أي من السنين المجدبة.

المسافر والهدية

عودة المسافر إلى أهله سالماً غانماً هو الأمل الذي ينتظره أهل كلِّ غائب أن يعود إليهم مسافرهم وهو في صحة وسلامة، ولكن ما أجمل أن يعود وقد حمل إليهم الهدايا القيمة، والهبات الطيبة، والذكريات الخالدة، والهدية لها في النفوس وقع متميز، وأثر فريد، ولا يشترط أن تكون شيئاً مكلفاً ولا أمراً ثميناً؛ لأن الأساس هو في قيمتها المعنوية حيث تعتبر رمزاً للمحبة، ودليلاً على المودّة، ولذلك يقول صاحب الخُلُقُ العظيم ﷺ: «**لو أُهديت لي ذراع لقبلت، ولو دُعيت إلى كراع لأجبت**».

وقال الشاعر:

إن الهـــديـــة حلـــوةٌ كـالسحـر تجتلـب القلـوبـا
تدني البغيض من الهوى حتـــى تصيِّـــره قـــريبـــا
وتعيـدُ مضطغـن العـدا وة بعـد نُفـرتـه حبيبـا

وقال ﷺ: «**تهادوا تحابوا**» [حسنه الألباني في الإرواء من طريق أبي هريرة].

وإنك لتعجب لكثير من المسافرين يصرفون في أسفارهم أموالاً طائلة ويخسرون دراهم عديدة، ومع ذلك لا يوفَّق أحدهم في شراء هدية طيبة متواضعة يُدخل بها السرور على زوجته، أو يبهج بها قلب والدته، أو ينال بها رضا والده، أو يُطيِّب بها نفوس أبنائه وبناته.

وهذا أحد الشعراء يعمِّم موضوع الهدية ويرى أن أصحاب الرجل وإخوانه يفرحون بعودته من سفره إذا حمل إليهم الهدايا ويكرهون لقياه إذا أتاهم صفر اليدين فيقول:

وإذا المسافرُ آبَ مِقْلَى مُفْلساً صِفْـرَ اليـديـن مـن الـذي رَجَّـاهُ

وخلا من الشيء الذي يُهْديه للـ ... إخـوانِ عـند لِقـائهـم إيّـاهُ
لـم يفـرحـوا بِقُـدومـهِ وتَثقّلـوا ... بِـوُرودهِ وتكـرّهُـوا لُقْيـاهُ
وإذا أتـاهُـم قـادِمـاً بهـدّيـةٍ ... كـان السـرورُ بقَـدْرِ مـن أهـداهُ

وإليك هذه الأبيات لأحد الشعراء يشنِّع فيها على بعض المسافرين الذين يذهبون للحج فيتلقاهم الناس بالترحاب والأطعمة الطيبة ثم هم يبخلون بالهدايا أو يأتي بعضهم بهدية رديئة من أحذية رخيصة أو غيرها. يقول:

سقـى حُجّـاجَنـا نَـوْءُ الثـريّـا ... علـى مـا كـان مـن بُخْـلٍ ومَطْـلِ
همُ جمعوا النعالَ وأحرزوها ... وسـدُّوا دونهـا بـابـاً بقُفْـلِ
فـإن أهـديـتُ فـاكهـةً وجـديـاً ... وعشـر دجـائـج بَعثُـوا بنعـلِ
ومِسْـواكَيْـنِ طـولُهمـا ذِراعٌ ... وَعُشْـرٍ مـن رِديء المُقْـلِ حُسْـلِ
فـإن أهـديـتُ ذاك ليحملـونـي ... علـى نعـلٍ فـدقّ الله رِجْلـي
أُنـاس تـائِهـون لهـم رُواءٌ ... تَغِيـم سمـاؤهـم مـن غيـر وَبْـلِ
إذا انتسبـوا ففـرعٌ مـن قـريـشٍ ... ولكـنّ الفِعـالَ فِعـالُ عُكْـلِ

عكل: قبيلة يقال إن فيهم غباوة وقلة فهم.

وهذا أحد المستهزئين بالهدايا، ويقال إنه بشار بن برد حيث أهدى إليه رجل شاةً هزيلة فقال:

وهبتَ لنا يا أخا مِنْقَرٍ ... وعِجْـلٍ وأكـرمَهـا أوّلاَ
عجوزاً أضرَّ بها دهرُها ... وأنـزلهـا الـذُّلُّ دارَ البلَـى
سلوحاً حسِبتُ بأنّ الرِّعاء ... سَقَوْها الغَرِيقَوْن والحنظَلا
وأجدبَ من ثور زَرّاعةٍ ... أصاب على جوعه سُنْبُلاَ
وأزهدَ من جِيفةٍ لم تَدَعْ ... لها الشمسُ من مَفْصِلٍ مَفْصلاَ
فأهوتْ يميني إلى جنبها ... فخِلـتُ حـراقيفَهـا جَنْـدَلاَ

وأهوتْ يَسَاري لعُرْقوبها ... فخلتُ عَرَاقيبَها مِغْزَلاَ
فقلت أبيع فلا مَشْرَباً ... تُؤدِّي إليَّ ولا مَأكلاَ
أمَ اجعلُ من جلدها حَنْبَلاً ... فأقْذِرْ بحنبلها حنبلا
إذا هي مرّت على مجلسٍ ... من العُجْبِ كبّر أو هلّلاَ
رأوْا آلةً خلفها سائقٌ ... يَحُثّ وإن هرولتْ هرولاَ
فكنتَ أمرتَ بها ضَخْمةً ... بشحمٍ ولحمٍ قد اسْتُكْمِلاَ
ولكن رَوْحاً عَدَا طَوْرَه ... وما كُنتُ أحسب أن يفعلاَ
فلولا مكانُك خَضّبتُها ... وعَلّقتُ في جِيدها جُلْجُلاَ
فجاءت لكيما ترى حالَها ... فتعلمَ أنِّي بها مُبتلَى
سألتُك لحماً لِصبياننا ... فقد زِدتَني فيهمُ عَيِّلاَ
فخذْها وأنت بها مُحسِنٌ ... ومازلتَ بي مُحسِناً مُجْمِلاَ

* * *